العددِ ١ 21A حزيران ٢٠٢٦
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
NO.21A1 Jun2026 Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

القيم الأخلاقية وأثرها على بناء المجتمع الإسلامي في العصر العباسي دراسة تاريخية تحليلية

م. م. حسن جلوب علوان العطواني
جامعة واسط كلية العلوم

Moral Values and Their Impact on Building Islamic Society in the Abbasid Era: A Historical and Analytical Study

M. M. Hassan Jaloub Alwan Al-Atwani
University of Wasit, College of Science

Abstract

This research aims to study moral values and their impact on building Islamic society during the Abbasid era. It analyzes their role in achieving political and administrative stability, strengthening social cohesion, and contributing to the scientific and cultural renaissance witnessed by the Abbasid state. The research adopts a historical and analytical approach to uncover the nature of the prevailing moral values in Abbasid society and demonstrate their impact on various aspects of public life, relying on historical and traditional sources and modern studies.The research addresses the most prominent moral values that contributed to building Abbasid society, foremost among them justice, social solidarity, truthfulness, trustworthiness, and respect for knowledge and scholars. It also demonstrates their role in regulating social relations and strengthening stability within state institutions. Furthermore, it highlights the contributions of the Ahl al-Bayt (peace be upon them) in consolidating the Islamic moral system through their scholarly and reformist activities and their intellectual guidance. The study concluded that moral values were among the most important factors contributing to the flourishing of Abbasid society and its cultural advancement, by supporting political stability, strengthening social cohesion, and encouraging scientific and cultural activity. It also showed that the decline of these values and the emergence of injustice, corruption, and political conflicts contributed to the weakening of society and the state during certain historical periods. The study affirms that moral values were a fundamental pillar in the construction of Islamic society and the continuation of its cultural prosperity.**Keywords**: Moral values, Abbasid era, Islamic society, social justice, political stability.

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة القيم الأخلاقية وأثرها في بناء المجتمع الإسلامي خلال العصر العباسي، من خلال تحليل دورها في تحقيق الاستقرار السياسي والإداري، وتعزيز التماسك الاجتماعي، والإسهام في النهضة العلمية والثقافية التي شهدتها الدولة العباسية. اعتمد البحث المنهج التاريخي التحليلي للكشف عن طبيعة القيم الأخلاقية السائدة في المجتمع العباسي، وبيان انعكاساتها على مختلف جوانب الحياة العامة، مستنداً إلى المصادر التاريخية والتراثية والدراسات الحديثة.وتناول البحث أبرز القيم الأخلاقية التي أسهمت في بناء المجتمع العباسي، وفي مقدمتها العدل والتكافل الاجتماعي والصدق والأمانة واحترام العلم والعلماء، مع بيان دورها في تنظيم العلاقات الاجتماعية وتعزيز الاستقرار داخل مؤسسات الدولة. كما سلط الضوء على إسهامات أهل البيت (عليهم السلام) في ترسيخ المنظومة الأخلاقية الإسلامية من خلال نشاطهم العلمي والإصلاحي وتوجيهاتهم الفكرية.وتوصلت الدراسة إلى أن القيم الأخلاقية مثلت أحد

أهم العوامل التي أسهمت في ازدهار المجتمع العباسي وتقدمه الحضاري، من خلال دعم الاستقرار السياسي وتعزيز التماسك الاجتماعي وتشجيع الحركة العلمية والثقافية. كما أظهرت أن التراجع عن هذه القيم وظهور مظاهر الظلم والفساد والصراعات السياسية أسهم في إضعاف المجتمع والدولة في بعض المراحل التاريخية. وتؤكد الدراسة أن القيم الأخلاقية كانت ركيزة أساسية في بناء المجتمع الإسلامي واستمرار ازدهاره الحضاري.

الكلمات المفتاحية: القيم الأخلاقية، العصر العباسي، المجتمع الإسلامي، العدالة الاجتماعية، الاستقرار السياسي.

١- المقدمة

تُعد القيم الأخلاقية من أهم الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، إذ أسهمت في تنظيم حياة الأفراد والمجتمعات وتحقيق التوازن بين الجوانب الدينية والاجتماعية والسياسية. وقد حظيت هذه القيم بمكانة كبيرة في الإسلام، حيث استمدت أصولها من القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال أهل البيت (عليهم السلام)، وشكلت إطاراً عاماً للسلوك الإنساني وبناء المجتمع. ويُعد العصر العباسي من أبرز العصور الإسلامية التي شهدت ازدهاراً حضارياً واسعاً في مختلف المجالات العلمية والثقافية والاجتماعية، وكان للقيم الأخلاقية دور مهم في هذا التطور. ويهدف هذا البحث إلى بيان أثر القيم الأخلاقية في بناء المجتمع الإسلامي خلال العصر العباسي، من خلال دراسة أبرز القيم التي سادت آنذاك وتحليل انعكاساتها على الاستقرار السياسي والتماسك الاجتماعي والنهضة العلمية والثقافية. كما يسعى إلى الكشف عن العلاقة بين الالتزام بالقيم الأخلاقية وبين قوة المجتمع واستقراره، مع بيان الآثار التي ترتبت على تراجع هذه القيم في بعض مراحل الدولة العباسية، وذلك بالاعتماد على المنهج التاريخي التحليلي.

١-١ مشكلة البحث

تنبع مشكلة البحث من أهمية القيم الأخلاقية في بناء المجتمع الإسلامي واستقراره، بوصفها منظومة مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال أهل البيت (عليهم السلام). وعلى الرغم من ازدهار العصر العباسي سياسياً وعلمياً وحضارياً، فإن دور القيم الأخلاقية في بناء المجتمع العباسي لم يحظَ بدراسة تاريخية تحليلية كافية. لذلك يسعى البحث إلى الكشف عن أبرز القيم الأخلاقية التي سادت المجتمع العباسي وبيان أثرها في تحقيق الاستقرار السياسي والإداري وتعزيز التماسك الاجتماعي ودعم النهضة العلمية والثقافية. كما يدرس الآثار المترتبة على تراجع بعض هذه القيم في مراحل معينة من تاريخ الدولة العباسية. وينطلق البحث من التساؤل الرئيس الآتي ما أثر القيم الأخلاقية في بناء المجتمع الإسلامي خلال العصر العباسي؟ ويتفرع عن هذا السؤال عدد من التساؤلات الفرعية:ما المقصود بالقيم الأخلاقية وما أهم مصادرها في الإسلام؟ما أبرز القيم الأخلاقية التي سادت المجتمع العباسي؟كيف أسهمت هذه القيم في تحقيق الاستقرار السياسي والإداري؟

١-٣ اهداف البحث

يهدف البحث إلى بيان مفهوم القيم الأخلاقية ومصادرها في الإسلام، والكشف عن أبرز القيم التي سادت المجتمع العباسي. كما يسعى إلى تحليل أثر هذه القيم في تحقيق الاستقرار السياسي والإداري وتعزيز التماسك الاجتماعي، وبيان دورها في النهضة العلمية والثقافية خلال العصر العباسي. كذلك يهدف إلى إبراز إسهامات أهل البيت (عليهم السلام) في ترسيخ المنظومة الأخلاقية الإسلامية، وبيان الآثار التي ترتبت على تراجع بعض القيم الأخلاقية في مراحل معينة من تاريخ الدولة العباسية.

١-٤ اهمية البحث

تنبع أهمية الدراسة من طبيعة موضوعها الذي يربط بين حقلين معرفيين هامين هما: التاريخ الاجتماعي، والفلسفة الأخلاقية التطبيقية، مما يتيح تقديم قراءة "سوسيوتاريخية" غير تقليدية لواحد من أغنى عصور التاريخ الإسلامي. وتتجلى القيمة العلمية للبحث في محاولته ملء الفراغ المعرفي في المكتبة التاريخية، والتي ركزت طويلاً على التاريخ السياسي العباسي وأغفلت البنية الأخلاقية العميقة كعامل حاسم في توجيه حركة المجتمع واستقراره. كما تبرز الأهمية في رصد وتحليل الدور المؤسسي للقيم الأخلاقية، وكيف تحولت المبادئ النظريّة إلى آليات عمل واقعية من خلال منظومة الأوقاف ونظام الحسبة، مما يقدم نموذجاً تاريخياً لكيفية مأسسة الأخلاق لحماية السلم المجتمعي. وتكتسب الدراسة أهمية

مضافة من خلال تعريتها للتحديات الأخلاقية الناجمة عن ثنائية "الترف والزهد" في العصر العباسي، وبيان دور حركات الإصلاح في صياغة خطوط دفاعية حافظت على الهوية الإسلامية للمجتمع أمام تيارات التحلل والمجون. وتكمن الأهمية العملية للبحث في تقديم نتائج وتوصيات علمية يمكن استصحابها في الواقع المعاصر، عبر فهم القوانين التاريخية التي تحكم العلاقة الطردية بين التماسك القيمي وقوة الهياكل الاجتماعية للدول. وأخيراً، يوفر هذا البحث مادة مرجعية رصينة ومنهجاً تحليلياً متوازناً للباحثين والمهتمين بدراسة تطور النظم الاجتماعية والقيمية في الحضارة الإسلامية.

١-٥ منهجية البحث

اعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي، من خلال تتبع القيم الأخلاقية في العصر العباسي ودراسة تطورها وأثرها في بناء المجتمع الإسلامي. كما استُخدم المنهج الوصفي في عرض المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بالقيم الأخلاقية، مع تحليل النصوص التاريخية والروايات الواردة في المصادر الأصلية والدراسات الحديثة للكشف عن دور هذه القيم في تحقيق الاستقرار السياسي والتماسك الاجتماعي والنهضة العلمية والثقافية، وبيان الآثار الناتجة عن التراجع الأخلاقي في بعض مراحل الدولة العباسية.

المبحث الأول : الإطار المفاهيمي للقيم الأخلاقية في الإسلام

المطلب الأول: مفهوم القيم الأخلاقية لغةً واصطلاحاً

تُعد القيم الأخلاقية من المفاهيم المركزية في الدراسات الإنسانية والاجتماعية والتاريخية، لما تؤديه من دور مهم في توجيه السلوك الإنساني وتنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع. وقد حظيت هذه القيم باهتمام واسع في الفكر الإسلامي، إذ ارتبطت بمفهوم الاستخلاف الإنساني وبناء المجتمع الصالح القائم على مبادئ العدل والتعاون والتكافل. ومن ثم فإن فهم مفهوم القيم الأخلاقية يشكل مدخلاً أساسياً لدراسة أثرها في بناء المجتمع الإسلامي خلال العصر العباسي يقصد بالقيم في اللغة جمع "قيمة"، وهي مشتقة من الفعل "قام"، وتدل على قدر الشيء وثمنه ومنزلته. وقد أورد علماء اللغة معاني متعددة للقيمة تدور حول الاستقامة والتقدير والمكانة، فالقيمة تعبر عن ما يجعل الشيء جديراً بالتقدير والاعتبار (ابن منظور، ١٩٩٤، ج١٢، ص٥٠٣). كما ورد في المعاجم العربية أن القيمة ترتبط بما يستحقه الشيء من تقدير مادي أو معنوي، الأمر الذي يعكس البعد المعياري للمفهوم في الثقافة العربية والإسلامية (الفيروزآبادي، ٢٠٠٥، ج٤، ص١١٢). أما الأخلاق فهي جمع "خُلُق"، والخُلُق في اللغة السجية والطبع والهيئة الراسخة في النفس. ويشير هذا المفهوم إلى الصفات التي يتصف بها الإنسان وتنعكس على سلوكه في التعامل مع الآخرين. وقد ذكر اللغويون أن الخُلُق يمثل الجانب الباطني من شخصية الإنسان، في مقابل الخَلْق الذي يشير إلى الهيئة الظاهرة، مما يدل على أن الأخلاق ترتبط بجوهر الشخصية الإنسانية وما يصدر عنها من أفعال وتصرفات (ابن منظور، ١٩٩٤، ج١٠، ص٨٥). وفي الاصطلاح، تعددت تعريفات القيم الأخلاقية تبعاً لاختلاف المدارس الفكرية والفلسفية، إلا أنها تتفق في كونها مجموعة من المعايير والمبادئ التي توجه السلوك الإنساني وتحدد ما يعد مقبولاً أو مرفوضاً داخل المجتمع. ويُنظر إلى القيم الأخلاقية بوصفها أحكاماً معيارية تساعد الأفراد على التمييز بين الخير والشر، والصواب والخطأ، والفضيلة والرذيلة (زهران، ٢٠٠٣، ص٦٧) ومن أشهر التعريفات التي قدمها علماء المسلمين لمفهوم الأخلاق تعريف الإمام الغزالي، الذي يرى أن الخُلُق "هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية"، فإذا كانت الأفعال الصادرة عن هذه الهيئة حسنة عُدَّ الخُلُق حسناً، وإذا كانت قبيحة عُدَّ الخُلُق سيئاً (الغزالي، ٢٠٠٥، ج٣، ص٥٣). ويُعد هذا التعريف من أكثر التعريفات دقة وشمولاً لأنه يربط بين الجانب النفسي والسلوك العملي للفرد وتتميز القيم الأخلاقية في الإسلام بجملة من الخصائص التي جعلتها قادرة على التأثير في بناء المجتمع الإسلامي عبر العصور. ومن أبرز هذه الخصائص ربانية المصدر، إذ تستند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، والشمول، حيث تنظم علاقة الإنسان بربه وبنفسه وبالآخرين، فضلاً عن التوازن الذي يجمع بين متطلبات الفرد ومصالح الجماعة. كما تتصف بالثبات في المبادئ والمرونة في التطبيق، بما يتيح لها الاستجابة للمتغيرات الاجتماعية والحضارية دون الإخلال بجوهرها وأهدافها (عمارة، ٢٠٠٧، ص٥٥) ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن القيم الأخلاقية تمثل إطاراً مرجعياً يحكم سلوك الأفراد والجماعات، ويحدد طبيعة العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع الإسلامي. كما أنها شكلت أحد العوامل الأساسية التي أسهمت في بناء الحضارة الإسلامية

وازدهارها، وهو ما ظهر بوضوح في العصر العباسي الذي شهد تفاعلاً واسعاً بين المبادئ الأخلاقية ومظاهر التقدم العلمي والثقافي والاجتماعي. ومن ثم فإن دراسة مفهوم القيم الأخلاقية تعد خطوة ضرورية لفهم أثرها في بناء المجتمع العباسي وتحليل دورها في تحقيق الاستقرار والتقدم الحضاري خلال تلك المرحلة التاريخية.

المطلب الثاني: مصادر القيم الأخلاقية في الإسلام

تستمد القيم الأخلاقية في الإسلام أهميتها من ارتباطها بالمصادر التشريعية التي أرست الأسس الفكرية والسلوكية للمجتمع الإسلامي. وقد تميزت المنظومة الأخلاقية الإسلامية بكونها ذات مصدر رباني، الأمر الذي أكسبها صفة الثبات والاستمرارية، وجعلها قادرة على توجيه سلوك الأفراد والجماعات في مختلف العصور. ولم تكن الأخلاق في الإسلام نتاجاً للتجارب البشرية أو الأعراف الاجتماعية فحسب، بل استندت إلى منظومة متكاملة من المصادر التي أسهمت في بناء الإنسان المسلم وصياغة شخصيته الحضارية.

أولاً: القرآن الكريم

يُعد القرآن الكريم المصدر الأول للقيم الأخلاقية في الإسلام، إذ تضمن مجموعة كبيرة من المبادئ التي تنظم حياة الإنسان وتوجه سلوكه نحو الخير والصلاح. وقد دعا القرآن الكريم إلى التحلي بالفضائل الأخلاقية كالعدل والرحمة والصدق والأمانة والإحسان والتسامح، كما نهى عن الرذائل كالكذب والظلم والخيانة والغش.وقد وصف الله تعالى رسالة الإسلام بأنها رسالة إصلاح أخلاقي واجتماعي، فجاءت الآيات القرآنية مؤكدة أهمية بناء الإنسان على أساس القيم الفاضلة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ (النحل: ٩٠). وتُعد هذه الآية من النصوص الجامعة التي تضمنت أصولاً أخلاقية كبرى تقوم عليها حياة المجتمع الإسلامي (الميداني، ١٩٩٩، ج١، ص٥٨).كما ربط القرآن الكريم بين الإيمان والعمل الأخلاقي، وجعل الأخلاق جزءاً من حقيقة التدين، فلا يكتمل إيمان الفرد إلا بانعكاسه على سلوكه العملي. وقد أسهم هذا الارتباط في إيجاد مجتمع يستند إلى معايير أخلاقية ثابتة تحكم العلاقات بين أفراده وتضمن تحقيق العدالة والاستقرار الاجتماعي (عمارة، ٢٠٠٧، ص٧٣).

ثانياً: السنة النبوية

تمثل السنة النبوية المصدر الثاني للقيم الأخلاقية في الإسلام، إذ جاءت شارحة ومفسرة لما ورد في القرآن الكريم من أحكام ومبادئ. وقد جسد النبي محمد (صلى الله عليه وآله) القيم الأخلاقية في أقواله وأفعاله وسيرته العملية، حتى أصبح النموذج الأكمل للأخلاق الإسلامية. وقد ورد عنه (صلى الله عليه وآله) قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (البيهقي، ٢٠٠٣، ج١٠، ص١٩١). ويكشف هذا الحديث عن المكانة المحورية للأخلاق في الرسالة الإسلامية، إذ جعلها النبي (صلى الله عليه وآله) من أهم أهداف البعثة النبوية كما تصف السيدة عائشة أخلاق النبي (صلى الله عليه وآله) بقولها: «كان خلقه القرآن» (النووي، ١٩٩٤، ج٦، ص٨٠)، وهو وصف يعكس الترجمة العملية للمبادئ القرآنية في حياة النبي (صلى الله عليه وآله). وقد أصبحت سيرته مصدراً أساسياً تستلهم منه الأجيال الإسلامية معاني الصدق والأمانة والعدل والرحمة والتسامح ومن خلال السنة النبوية تبلورت منظومة أخلاقية متكاملة شملت مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وأسهمت في بناء مجتمع يقوم على الاحترام المتبادل والتعاون وتحمل المسؤولية (القرضاوي، ٢٠٠١، ص١٢٢).

ثالثاً: أهل البيت (عليهم السلام)

يُعد أهل البيت (عليهم السلام) من أهم المصادر التي أسهمت في حفظ القيم الأخلاقية الإسلامية ونقلها إلى الأجيال اللاحقة، لما امتازوا به من مكانة علمية ودينية رفيعة في المجتمع الإسلامي. وقد ارتبط دورهم بكونهم الامتداد الطبيعي لرسالة النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، إذ عملوا على بيان الأحكام الشرعية وترسيخ المبادئ الأخلاقية التي دعا إليها الإسلام، من خلال أقوالهم وسلوكهم العملي ومواقفهم الإصلاحية. وقد حث النبي محمد (صلى الله عليه وآله) المسلمين على التمسك بأهل بيته والاقتداء بهم، إذ ورد عنه قوله: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً» (الترمذي، ١٩٩٨، ج٥، ص٦٦٢). ويشير هذا الحديث إلى أهمية أهل البيت (عليهم السلام) بوصفهم مرجعاً في فهم التعاليم الإسلامية والمحافظة على أصالتها.وقد أسهم أئمة أهل البيت (عليهم

السلام) في نشر منظومة متكاملة من القيم الأخلاقية التي ركزت على العدل والرحمة والتسامح والصدق والأمانة واحترام الإنسان. ويُعد الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) من أبرز الشخصيات الإسلامية التي قدمت نموذجاً متكاملاً للأخلاق الإسلامية في الفكر والممارسة، حيث أكد في وصاياه وخطبه أهمية العدل والإحسان ومراعاة حقوق الناس. ومن أقواله المشهورة: «العدل يضع الأمور مواضعها» (الرضي، ٢٠٠٤، ص٤٧٦)، وهو مبدأ أخلاقي أسهم في بناء الفكر السياسي والاجتماعي الإسلامي كما كان للإمام الحسن (عليه السلام) والإمام الحسين (عليه السلام) دور بارز في ترسيخ قيم الإصلاح والتضحية وتحمل المسؤولية الاجتماعية، في حين أسهم الإمام محمد الباقر (عليه السلام) والإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في نشر العلوم الإسلامية وتربية أعداد كبيرة من العلماء والفقهاء الذين نقلوا تعاليمهم الأخلاقية إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامي (القرشي، ٢٠٠٧، ج١، ص١١٤) وقد ركزت مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) على تهذيب النفس بوصفه أساساً لإصلاح المجتمع، إذ ربطت بين صلاح الفرد وصلاح الأمة، وعدّت الأخلاق الركيزة الأساسية في بناء الحضارة الإسلامية. ولهذا أصبحت أقوال الأئمة وسيرتهم العملية مصدراً مهماً من مصادر القيم الأخلاقية في الفكر الإسلامي، وأسهمت في ترسيخ العديد من المبادئ التي انعكست آثارها في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية خلال العصور الإسلامية المتعاقبة (مغنية، ٢٠٠٨، ص٨٩) وعليه، فإن أهل البيت (عليهم السلام) يمثلون أحد الروافد الأساسية للمنظومة الأخلاقية الإسلامية، إذ أسهموا في حفظ القيم التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية، وعملوا على تطبيقها عملياً في واقع المجتمع الإسلامي، الأمر الذي جعل تراثهم الأخلاقي مصدراً مهماً في دراسة القيم وأثرها في بناء المجتمع الإسلامي.

المبحث الثاني: مظاهر القيم الأخلاقية في المجتمع العباسي وأثرها في بنائه

المطلب الأول: قيمة العدل وأثرها في استقرار المجتمع العباسي

يُعد العدل من أهم القيم الأخلاقية التي أكد عليها الإسلام وجعلها أساساً في بناء المجتمع والدولة، إذ يرتبط بتحقيق الأمن والاستقرار وحفظ الحقوق وتنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات. وقد احتلت هذه القيمة مكانة بارزة في القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال أهل البيت (عليهم السلام)، لما لها من دور في إقامة مجتمع متوازن تسوده المساواة والإنصاف. وقد انعكس الاهتمام بالعدل بصورة واضحة في التجربة الحضارية الإسلامية عامة وفي العصر العباسي خاصة، حيث أدرك الخلفاء والفقهاء أهمية هذه القيمة في استقرار الدولة واستمرارها وقد أكد القرآن الكريم على ضرورة إقامة العدل بين الناس، وعدّه من المقاصد الكبرى للشريعة الإسلامية، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠). كما دعا إلى المساواة في تطبيق الأحكام وعدم التمييز بين الناس على أساس الانتماء أو المكانة الاجتماعية، الأمر الذي جعل العدل قاعدة أساسية في بناء المجتمع الإسلامي (الميداني، ١٩٩٩، ج١، ص٨٥). أما النبي محمد (صلى الله عليه وآله) فقد جسد قيمة العدل في مختلف جوانب حياته، وأكد أهميتها في إدارة شؤون المجتمع والدولة، إذ ورد عنه قوله: «المقسطون عند الله على منابر من نور» (النووي، ١٩٩٤، ج١٢، ص٢١١). كما سار أهل البيت (عليهم السلام) على هذا النهج، فكان الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) مثالاً بارزاً للعدالة في الحكم والإدارة، وقد أكد في نهج البلاغة أن «العدل أساس به قوام العالم» (الرضي، ٢٠٠٤، ص٤٧٦)، وهو ما يعكس إدراكه العميق لأهمية هذه القيمة في استقرار المجتمعات واستمرارها وعندما قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م رفعت شعارات إصلاحية ركزت على إعادة الحقوق وتحقيق العدالة بين أفراد المجتمع بعد حالة التذمر التي شهدتها السنوات الأخيرة من الحكم الأموي. وقد أسهم هذا التوجه في كسب تأييد شرائح واسعة من المجتمع الإسلامي، ولا سيما في العراق وخراسان، حيث ارتبطت شرعية الدولة الجديدة بقدرتها على تحقيق العدالة الاجتماعية والسياسية (الطبري، ١٩٦٧، ج٧، ص٤٢٥) وشهدت السنوات الأولى من العصر العباسي اهتماماً ملحوظاً بتنظيم أجهزة الدولة وتطوير المؤسسات الإدارية والقضائية بما يضمن تحقيق العدالة بين الناس. وقد حظي القضاء بمكانة مهمة في النظام الإداري العباسي، إذ عمل الخلفاء على اختيار القضاة من أهل العلم والفقه والكفاءة، ومنحوهم صلاحيات واسعة للنظر في النزاعات وإعادة الحقوق إلى أصحابها. وقد أدى ذلك إلى تعزيز ثقة الناس بمؤسسات الدولة وترسيخ الشعور بالأمن والاستقرار داخل المجتمع (الخضري، ٢٠٠٤، ج٢، ص١١٤) ومن أبرز مظاهر العدل في العصر العباسي إنشاء مؤسسة "ديوان المظالم"،

التي خُصصت للنظر في شكاوى الناس ضد الولاة والموظفين وأصحاب النفوذ. وقد مثلت هذه المؤسسة وسيلة مهمة لحماية الحقوق ومنع التجاوزات الإدارية، وأسهمت في تقوية العلاقة بين الدولة والرعية. ويذكر المؤرخون أن عدداً من الخلفاء العباسيين كانوا يخصصون أياماً معينة للنظر في المظالم والاستماع مباشرة إلى شكاوى المواطنين (الماوردي، ١٩٨٩، ص١٢٨).كما انعكست قيمة العدل على الحياة الاقتصادية للمجتمع العباسي، حيث سعت الدولة إلى تنظيم جباية الضرائب والخراج وفق ضوابط محددة تهدف إلى منع الظلم والاستغلال. وقد أدرك الخلفاء أن الاستقرار الاقتصادي لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال العدالة في توزيع الأعباء المالية وحماية مصالح الرعية. لذلك شهدت بعض المراحل العباسية إصلاحات مالية هدفت إلى التخفيف من معاناة السكان وتحقيق قدر أكبر من التوازن الاقتصادي (أمين، ١٩٦٩، ج١، ص١٥٦) وكان للعدل دور مهم في تعزيز التماسك الاجتماعي بين مختلف مكونات المجتمع العباسي، الذي ضم العرب والفرس والترك وغيرهم من الشعوب. فكلما شعر الأفراد بالمساواة أمام القانون زادت درجة اندماجهم في المجتمع وتعزز انتماؤهم للدولة. وقد ساعد ذلك على الحد من النزاعات الاجتماعية وإيجاد حالة من الاستقرار سمحت بازدهار النشاط العلمي والثقافي والاقتصادي الذي تميز به العصر العباسي (زيدان، ٢٠١٤، ج٣، ص٧٨). ومن الشواهد المهمة على أثر العدل في الحياة العامة ما شهده عهد الحاكم أبوجعفر المنصور من تنظيم إداري واسع أسهم في تعزيز سلطة الدولة وتحقيق قدر من الاستقرار الداخلي، فضلاً عن اهتمامه بمراقبة الولاة ومحاسبتهم عند ارتكاب المخالفات. كما عُرف الخليفة هارون الرشيد باهتمامه بالنظر في شؤون الرعية ومتابعة أعمال المسؤولين، وهو ما انعكس إيجاباً على قوة الدولة واستقرارها خلال فترة حكمه (الطبري، ١٩٦٧، ج٨، ص٣١٢). ومع ذلك، فإن التجربة العباسية لم تكن خالية من مظاهر الظلم أو الانحراف عن مبادئ العدالة، إذ شهدت بعض الفترات السياسية حالات من الصراع والتعسف الإداري، خاصة في أواخر العصر العباسي. وقد أدى تراجع قيمة العدل في بعض المراحل إلى ظهور أزمات اجتماعية وسياسية أسهمت في إضعاف الدولة وتراجع هيبتها. وهذا يؤكد أن استقرار المجتمع كان مرتبطاً إلى حد كبير بمدى التزام الدولة ومؤسساتها بمبدأ العدالة في إدارة شؤون الرعية (ابن الأثير، ١٩٩٧، ج١٠، ص٥٤).ويتضح من ذلك أن العدل كان من أبرز القيم الأخلاقية التي أسهمت في بناء المجتمع العباسي وتحقيق استقراره. فقد انعكست هذه القيمة على مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وأسهمت في تعزيز الثقة بين الحاكم والمحكوم، وحماية الحقوق، وتقوية مؤسسات الدولة. كما ساعدت على توفير بيئة مستقرة مهدت لازدهار الحضارة العباسية في مختلف المجالات، الأمر الذي يجعل العدل أحد أهم العوامل التي أسهمت في قوة المجتمع الإسلامي واستمراره خلال تلك المرحلة التاريخية.وعلى الرغم من الجهود التي بذلها عدد من الخلفاء العباسيين لترسيخ مبدأ العدل وتعزيز مؤسسات القضاء والمظالم، فإن التطبيق العملي لهذه القيمة لم يكن ثابتاً في جميع مراحل العصر العباسي. فقد شهدت بعض الفترات ممارسات سياسية اتسمت بالتضييق على أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وأنصارهم، الأمر الذي يُعد من أبرز مظاهر الابتعاد عن مبدأ العدالة الذي دعا إليه الإسلام. وتشير المصادر التاريخية إلى أن السلطة العباسية نظرت في أحيان كثيرة إلى المكانة العلمية والاجتماعية التي تمتع بها أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بوصفها مصدر قلق سياسي، مما دفع بعض الخلفاء إلى فرض الرقابة عليهم أو تقييد حركتهم (المسعودي، ٢٠٠٥، ج٣، ص٣٦٣)ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما تعرض له الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) من ملاحقة وسجن خلال عهد الخليفة هارون الرشيد، حيث تنقل بين عدد من السجون حتى استشهد في بغداد سنة ١٨٣هـ بحسب ما تذكره المصادر الإسلامية (المفيد، ١٩٩٣، ج٢، ص٢٣٣). كما تشير الروايات التاريخية إلى أن الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) واجه ضغوطاً سياسية خلال عهد الخليفة المأمون، الذي سعى إلى استثمار مكانته الدينية من خلال ولاية العهد، قبل أن تنتهي حياته سنة ٢٠٣هـ في ظروف عدّتها مصادر كثيرة مرتبطة بالصراع السياسي القائم آنذاك (المسعودي، ٢٠٠٥، ج٣، ص٤٠١). كذلك امتدت سياسة المراقبة والتضييق إلى الإمام محمد الجواد (عليه السلام) الذي فُرضت عليه رقابة مستمرة خلال إقامته في بغداد، فضلاً عن تعرض عدد من أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بعده لإجراءات مشابهة هدفت إلى الحد من تأثيرهم الاجتماعي والعلمي بين المسلمين (القرشي، ٢٠٠٧، ج٢، ص١٤٥). وقد تركت هذه السياسات آثاراً سلبية على الواقع الاجتماعي والسياسي، وأسهمت في

توسيع حالة التوتر بين السلطة العباسية وقطاعات واسعة من المجتمع التي كانت تنظر إلى أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بوصفهم رموزاً دينية وعلمية بارزة. ومن ثم فإن دراسة مبدأ العدل في العصر العباسي تقتضي الإشارة إلى أن نجاح الدولة في بعض المجالات الإدارية والقضائية لا ينفي وجود ممارسات سياسية ابتعدت عن مقتضيات العدالة، ولا سيما في تعامل بعض الخلفاء مع أئمة أهل البيت (عليهم السلام). ويؤكد ذلك أن استقرار المجتمعات وقوة الدول يرتبطان بمدى الالتزام الشامل بمبدأ العدل دون تمييز أو استثناء، وهو ما أكدته التعاليم الإسلامية وأقوال أهل البيت (عليهم السلام) في مختلف المراحل التاريخية.

المطلب الثاني: التكافل الاجتماعي والإحسان ودورهما في تعزيز التماسك المجتمعي

يُعد التكافل الاجتماعي من أبرز القيم الأخلاقية التي دعا إليها الإسلام وجعلها أساساً في بناء المجتمع الإنساني، إذ يقوم على مبدأ التعاون بين أفراد المجتمع وتحمّل المسؤولية المشتركة تجاه الفئات المحتاجة والضعيفة. وقد ارتبط التكافل الاجتماعي بمفهوم الإحسان الذي يمثل مرتبة أخلاقية رفيعة تتجاوز حدود الواجب إلى البذل والعطاء طوعاً من أجل تحقيق الخير العام. ومن خلال هاتين القيمتين استطاع المجتمع الإسلامي أن يؤسس نظاماً اجتماعياً متماسكاً يقوم على التضامن والتراحم والتعاون بين أفراده.

وقد أكد القرآن الكريم أهمية التكافل والإحسان في مواضع عديدة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥)، وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٢). وتدل هذه النصوص على أن الإسلام لم ينظر إلى الفرد بمعزل عن مجتمعه، بل ربط مصالح الأفراد بمصالح الجماعة، وجعل التعاون والتكافل من الواجبات الأخلاقية التي تحفظ استقرار المجتمع وتماسكه (الميداني، ١٩٩٩، ج١، ص١١٤) كما أكد النبي محمد (صلى الله عليه وآله) هذا المبدأ في العديد من أحاديثه، ومن ذلك قوله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد» (النووي، ١٩٩٤، ج١٦، ص١٣٩). ويبرز هذا الحديث أهمية التضامن الاجتماعي في بناء المجتمع الإسلامي، إذ يجعل أفراد المجتمع بمنزلة وحدة متكاملة يتأثر بعضها ببعض. وسار أهل البيت (عليهم السلام) على النهج ذاته في ترسيخ قيم التكافل والإحسان، فكان الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) مثالاً بارزاً في رعاية الفقراء والمحتاجين، وقد نقلت المصادر التاريخية العديد من المواقف التي جسدت اهتمامه بالفئات الضعيفة في المجتمع. كما أكد الإمام الحسن (عليه السلام) والإمام الحسين (عليه السلام) أهمية العطاء ومساعدة المحتاجين، وجعلوا من خدمة الناس وسيلة لتحقيق العدالة الاجتماعية وتقوية الروابط الإنسانية بين أفراد المجتمع (القرشي، ٢٠٠٨، ج١، ص٩٧).وقد انعكست هذه المبادئ بصورة واضحة على المجتمع العباسي، حيث شهدت الدولة العباسية تطوراً ملحوظاً في المؤسسات الاجتماعية والخيرية التي هدفت إلى تقديم المساعدة للفقراء والمساكين وأبناء السبيل. وكان نظام الزكاة من أهم الوسائل التي أسهمت في تحقيق التكافل الاجتماعي، إذ وفر مورداً مالياً لدعم الفئات المحتاجة وتقليل الفوارق الاقتصادية بين أفراد المجتمع. كما لعبت الصدقات والأوقاف دوراً مهماً في تمويل الأنشطة الخيرية والاجتماعية المختلفة (الخضري، ٢٠٠٤، ج٢، ص٢٤١) ومن أبرز مظاهر التكافل الاجتماعي في العصر العباسي انتشار نظام الوقف الإسلامي، الذي أسهم في دعم المؤسسات التعليمية والصحية والدينية. فقد أوقف كثير من الخلفاء والأمراء والتجار أموالاً وعقارات خصصت عوائدها للإنفاق على المدارس والمساجد والمستشفيات وإعانة الفقراء والأيتام. وقد أدى ذلك إلى تخفيف الأعباء الاقتصادية عن شرائح واسعة من المجتمع وأسهم في تحقيق قدر كبير من الاستقرار الاجتماعي (أمين، ١٩٦٩، ج٢، ص٣٤). كما شهدت المدن العباسية الكبرى، ولا سيما بغداد، نشاطاً واسعاً في مجال الرعاية الاجتماعية، حيث انتشرت دور الضيافة ومؤسسات الإيواء ومراكز تقديم المساعدات للفقراء والمسافرين. وقد عكست هذه المؤسسات مستوى متقدماً من الوعي الاجتماعي الذي استند إلى القيم الإسلامية الداعية إلى الرحمة والتعاون والإحسان. وأسهمت هذه الجهود في تقوية الروابط الاجتماعية والحد من مظاهر الفقر والعوز التي يمكن أن تؤدي إلى اضطراب المجتمع (زيدان، ٢٠١٤، ج٣، ص١٦٢). ولم يقتصر التكافل الاجتماعي على الجوانب المادية فحسب، بل شمل أيضاً الدعم المعنوي والرعاية الإنسانية. فقد كان العلماء والفقهاء وأهل الخير يضطلعون بأدوار مهمة في إصلاح ذات البين ومساعدة المحتاجين وتوجيه الناس نحو قيم التعاون والتراحم. وقد ساعد هذا الدور في تعزيز الانسجام الاجتماعي وتقوية الشعور بالانتماء إلى المجتمع

الإسلامي (الندوي، ١٩٨٨، ص١٢٨). ومن الشواهد المهمة على انتشار روح التكافل في المجتمع العباسي ما ذكره المؤرخون عن كثرة المؤسسات الوقفية التي خُصصت لرعاية الأيتام والأرامل وطلبة العلم. كما أن بعض الخلفاء العباسيين حرصوا على تخصيص أموال من بيت المال لإغاثة المتضررين في أوقات الأزمات والكوارث الطبيعية، إدراكاً منهم لأهمية المحافظة على الاستقرار الاجتماعي وتحقيق العدالة بين أفراد المجتمع (الطبري، ١٩٦٧، ج٨، ص٥١٨).وعلى الرغم من هذه الجوانب الإيجابية، فإن المجتمع العباسي لم يكن خالياً من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية، إذ شهدت بعض المراحل تزايداً في الفوارق الطبقية وتركز الثروة في أيدي فئات محددة. غير أن استمرار مؤسسات التكافل والعمل الخيري أسهم في الحد من آثار هذه المشكلات وساعد على المحافظة على قدر من التوازن الاجتماعي داخل الدولة (ابن الأثير، ١٩٩٧، ج٩، ص٢١٢) ويتضح مما تقدم أن التكافل الاجتماعي والإحسان شكلا ركيزتين أساسيتين في بناء المجتمع العباسي، وأسهما في تحقيق التماسك والاستقرار بين أفراده. فقد وفرت هذه القيم شبكة من العلاقات الإنسانية القائمة على التعاون والتراحم، وعززت الشعور بالمسؤولية المشتركة تجاه المجتمع، الأمر الذي انعكس إيجاباً على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والحضارية في العصر العباسي.

المبحث الثالث: أثر القيم الأخلاقية في بناء المجتمع الإسلامي خلال العصر العباسي

المطلب الأول: أثر القيم الأخلاقية في تحقيق الاستقرار السياسي والإداري

شكّلت القيم الأخلاقية في العصر العباسي أحد أهم الأسس التي قامت عليها عملية بناء الدولة والمجتمع، إذ أسهمت بصورة مباشرة في تحقيق الاستقرار السياسي والإداري الذي يُعد شرطاً أساسياً لازدهار الحضارات واستمرارها. وقد أدرك المسلمون منذ وقت مبكر أن نجاح الدولة لا يعتمد على القوة العسكرية أو الإمكانات الاقتصادية فحسب، بل يرتبط أيضاً بمدى التزام القائمين على شؤون الحكم بمبادئ العدل والأمانة والنزاهة وتحمل المسؤولية. ومن هنا أصبحت القيم الأخلاقية جزءاً أساسياً من المنظومة الإدارية والسياسية التي استندت إليها الدولة العباسية في إدارة شؤونها المختلفة وقد أكد الإسلام أهمية العدالة في الحكم والإدارة، وعدّها من أهم واجبات الحاكم تجاه الرعية، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠). كما دعا إلى الالتزام بالأمانة وتحمل المسؤولية في إدارة شؤون الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨). وقد شكلت هذه المبادئ مرجعاً أخلاقياً مهماً للنظام السياسي والإداري في الدولة الإسلامية عموماً والدولة العباسية على وجه الخصوص (الميداني، ١٩٩٩، ج١، ص١٦٢).كما أكد النبي محمد (صلى الله عليه وآله) أهمية المسؤولية الأخلاقية في إدارة شؤون المجتمع، إذ قال: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته» (النووي، ١٩٩٤، ج١٢، ص٢١٣). ويعكس هذا الحديث مبدأ المساءلة وتحمل المسؤولية الذي يعد من أهم مقومات الإدارة الناجحة. وقد حرص عدد من الخلفاء العباسيين على إظهار التزامهم بهذه المبادئ من خلال الاهتمام بشؤون الرعية ومتابعة أداء الولاة والموظفين في مختلف أنحاء الدولة. وكان لأهل البيت (عليهم السلام) دور مهم في ترسيخ مفهوم الإدارة القائمة على الأخلاق والعدالة. فقد أكد الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في عهده لمالك الأشتر أن أساس نجاح الدولة يتمثل في العدل وحسن معاملة الرعية، إذ قال: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم» (الرضي، ٢٠٠٤، ص٤٢٩). ويُعد هذا النص من أهم الوثائق السياسية والأخلاقية في التراث الإسلامي، لما يتضمنه من مبادئ تتعلق بالحكم الرشيد والإدارة العادلة. وقد انعكست هذه المبادئ على الواقع السياسي للدولة العباسية، حيث اهتم الخلفاء في المراحل الأولى من الدولة بتطوير الأجهزة الإدارية وتنظيم الدواوين وإرساء قواعد العمل المؤسسي. وكان الهدف من ذلك تحقيق العدالة في إدارة شؤون الدولة وضمان وصول الحقوق إلى أصحابها. وقد ساعد هذا التنظيم الإداري في تعزيز سلطة الدولة وتقوية أجهزتها التنفيذية، مما وفر قدراً من الاستقرار السياسي الذي أسهم في ازدهار المجتمع العباسي (الخضري، ٢٠٠٤، ج٢، ص١١٨). ومن أبرز مظاهر تأثير القيم الأخلاقية في الإدارة العباسية إنشاء ديوان المظالم الذي اختص بالنظر في شكاوى المواطنين ضد الموظفين وأصحاب النفوذ. وقد مثّل هذا الديوان إحدى الوسائل المهمة لحماية الحقوق ومنع التجاوزات الإدارية، الأمر الذي عزز ثقة الناس بمؤسسات الدولة وأسهم في تقوية العلاقة بين الحاكم والمحكوم (الماوردي، ١٩٨٩، ص١٣٤). كما كان لاختيار القضاة والولاة على أساس الكفاءة

والأمانة أثر مهم في تحقيق الاستقرار الإداري. فقد سعت الدولة العباسية في كثير من المراحل إلى الاستفادة من أصحاب الخبرة والعلم في إدارة شؤونها، الأمر الذي ساعد على رفع كفاءة المؤسسات الحكومية وتحسين مستوى الخدمات المقدمة للمجتمع. وقد أدى انتشار ثقافة المسؤولية والأمانة إلى الحد من مظاهر الفوضى الإدارية وتحقيق قدر من الانضباط داخل أجهزة الدولة (الجهشياري، ٢٠٠٠، ص١٠٢).وفي المجال السياسي، أسهم الالتزام النسبي بمبادئ العدالة في تعزيز شرعية الدولة واستقرارها. فكلما شعر أفراد المجتمع بوجود نظام عادل يحفظ حقوقهم ويحقق المساواة بينهم، ازدادت درجة ولائهم للدولة وتراجع احتمال حدوث الاضطرابات والصراعات الداخلية. ولذلك ارتبطت فترات القوة والاستقرار في العصر العباسي بوجود إدارة قادرة على تطبيق القوانين ومراقبة أداء المسؤولين والحد من حالات الظلم والفساد (أمين، ١٩٦٩، ج٢، ص٢٢١) ومع ذلك، فإن التجربة العباسية لم تكن مثالية في جميع مراحلها، إذ شهدت بعض الفترات ابتعاداً عن المبادئ الأخلاقية التي قامت عليها الدولة. فقد أدى الصراع على السلطة وانتشار النفوذ الشخصي أحياناً إلى ظهور مظاهر من الظلم والفساد الإداري، الأمر الذي انعكس سلباً على الاستقرار السياسي وأضعف ثقة المجتمع ببعض مؤسسات الدولة. كما أن ما تعرض له عدد من أئمة أهل البيت (عليهم السلام) من تضييق وملاحقة وسجن في بعض العهود العباسية يُعد من الممارسات التي ابتعدت عن مقتضيات العدالة السياسية التي دعا إليها الإسلام (المفيد، ١٩٩٣، ج٢، ص٢٣٣). ومن الأمثلة البارزة على ذلك ما تعرض له الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) من اعتقال وسجن خلال عهد هارون الرشيد، وما واجهه الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) من ضغوط سياسية خلال عهد المأمون، فضلاً عن الرقابة التي فُرضت على الإمام محمد الجواد (عليه السلام) في مراحل لاحقة. وقد أسهمت هذه السياسات في زيادة التوتر بين السلطة وبعض فئات المجتمع، وأظهرت الآثار السلبية للابتعاد عن مبدأ العدالة في إدارة الشأن العام (المسعودي، ٢٠٠٥، ج٣، ص٤٠١). ويتضح من ذلك أن القيم الأخلاقية أسهمت بصورة كبيرة في تحقيق الاستقرار السياسي والإداري خلال العصر العباسي، من خلال تعزيز العدالة والأمانة والمسؤولية في إدارة الدولة. كما أن تراجع هذه القيم في بعض المراحل أدى إلى نتائج سلبية انعكست على قوة الدولة واستقرارها. ولذلك يمكن القول إن نجاح الدولة العباسية في تحقيق ازدهارها الحضاري كان مرتبطاً إلى حد كبير بمدى التزامها بالمبادئ الأخلاقية التي شكلت الأساس الفكري والاجتماعي للنظام الإسلامي.

المطلب الثاني: أثر القيم الأخلاقية في النهضة العلمية والثقافية

تُعد النهضة العلمية والثقافية التي شهدها العصر العباسي من أبرز مظاهر الازدهار الحضاري في التاريخ الإسلامي، وقد ارتبطت هذه النهضة ارتباطاً وثيقاً بمنظومة القيم الأخلاقية التي شجعت على طلب العلم واحترام العلماء والانفتاح على المعارف المختلفة. فلم يكن التقدم العلمي الذي حققته الدولة العباسية وليد الصدفة أو نتيجة لعوامل سياسية واقتصادية فحسب، بل كان ثمرة لبيئة أخلاقية وفكرية آمنت بقيمة العلم ودوره في بناء الإنسان والمجتمع وقد أولى الإسلام العلم مكانة عظيمة وجعله من أهم الوسائل التي تحقق رقي الإنسان وتقدمه. وقد أكد القرآن الكريم هذه المكانة في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩)، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١). وتكشف هذه الآيات عن ارتباط العلم بالقيم الدينية والأخلاقية التي تدعو إلى المعرفة والتفكير والتأمل (الميداني، ١٩٩٩، ج٢، ص٥٤).كما حث النبي محمد (صلى الله عليه وآله) على طلب العلم وجعله واجباً على المسلمين، إذ ورد عنه قوله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (ابن ماجه، ٢٠٠٩، ج١، ص٨١). وقد أسهمت هذه التوجيهات في إيجاد ثقافة عامة تقدّر العلم والعلماء، وتعد المعرفة وسيلة لتحقيق التقدم والإصلاح. ولم يقتصر الاهتمام بالعلم على القرآن الكريم والسنة النبوية، بل كان لأهل البيت (عليهم السلام) دور بارز في ترسيخ هذه القيمة داخل المجتمع الإسلامي. فقد عُرف الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) بسعة علمه وعمق حكمته، وكان يحث الناس على التعلم والتفكر، وقد روي عنه قوله: «العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال» (الرضي، ٢٠٠٤، ص٤٨٨). كما أسهم الإمام محمد الباقر والإمام جعفر الصادق (عليهما السلام) في تأسيس حركة علمية واسعة كان لها أثر كبير في تطور العلوم الإسلامية والطبيعية، حيث تتلمذ على أيديهما عدد كبير من العلماء الذين أسهموا في إثراء الحضارة الإسلامية (القرشي، ٢٠٠٧، ج١، ص٢٤١).ومن أبرز مظاهر

هذا الاهتمام تأسيس بيت الحكمة الذي أصبح مركزاً للترجمة والبحث العلمي وجمع الكتب. وقد لعب هذا الصرح العلمي دوراً مهماً في نقل العلوم والمعارف من الحضارات اليونانية والفارسية والهندية إلى العالم الإسلامي، الأمر الذي ساعد على تطوير الفكر الإسلامي وإثراء الحركة العلمية في مختلف المجالات (زيدان، ٢٠١٤، ج٣، ص٢٧٨). كما شجع المجتمع العباسي العلماء والباحثين على الإبداع والابتكار، فظهرت أسماء علمية بارزة في الطب والفلك والرياضيات والكيمياء والفلسفة واللغة والأدب. وقد ساعد احترام العلماء وتقدير مكانتهم الاجتماعية على توفير بيئة مناسبة للبحث العلمي والإنتاج الفكري، مما أسهم في تحقيق نهضة علمية واسعة امتدت آثارها إلى الحضارات الأخرى (ابن خلدون، ٢٠٠٤، ص٦٠٢). وكان للقيم الأخلاقية أثر مهم في طبيعة النشاط العلمي نفسه، إذ ارتبط العلم في التصور الإسلامي بالأمانة العلمية والبحث عن الحقيقة وخدمة الإنسان. ولذلك سعى كثير من العلماء إلى توظيف معارفهم في خدمة المجتمع ومعالجة مشكلاته، الأمر الذي عزز العلاقة بين العلم والتنمية الاجتماعية والحضارية. كما أسهمت قيم الحوار والتسامح الفكري في إثراء النقاشات العلمية وفتح المجال أمام تبادل الآراء والأفكار بين مختلف المدارس الفكرية (الندوي، ١٩٨٨، ص١٧٦). ومن الجوانب المهمة أيضاً أن النهضة الثقافية في العصر العباسي لم تقتصر على العلوم الدينية والطبيعية، بل شملت الأدب والشعر والتاريخ والفنون المختلفة. وقد ساعدت القيم الأخلاقية المرتبطة بالعلم والثقافة على تنمية الوعي المجتمعي وتعزيز الهوية الحضارية للأمة الإسلامية. كما أسهمت في بناء جيل من العلماء والمثقفين الذين كان لهم دور بارز في تطوير الحياة الفكرية والاجتماعية (الخضري، ٢٠٠٤، ج٢، ص٣٢٧). وفي المقابل، فإن بعض مراحل العصر العباسي شهدت تراجعاً في الاهتمام بالعلم نتيجة الصراعات السياسية والاضطرابات الداخلية، الأمر الذي انعكس سلباً على النشاط الثقافي والعلمي. وقد أثبتت التجربة التاريخية أن ازدهار العلم كان يرتبط دائماً بوجود بيئة أخلاقية مستقرة تشجع على المعرفة وتحترم العلماء وتحفظ حرية التفكير والإبداع (ابن الأثير، ١٩٩٧، ج١٠، ص٢٢١) ويتضح مما تقدم أن القيم الأخلاقية أسهمت بصورة كبيرة في تحقيق النهضة العلمية والثقافية خلال العصر العباسي، من خلال ترسيخ مكانة العلم وتشجيع البحث والمعرفة واحترام العلماء. وقد انعكس ذلك في ظهور مؤسسات علمية متقدمة، وازدهار حركة التأليف والترجمة، وتطور مختلف العلوم والمعارف، مما جعل العصر العباسي واحداً من أكثر العصور إشراقاً في تاريخ الحضارة الإسلامية. ولذلك يمكن القول إن التقدم العلمي والثقافي الذي شهدته الدولة العباسية كان نتيجة مباشرة لانتشار منظومة أخلاقية جعلت من العلم قيمة حضارية وإنسانية عليا.

المطلب الثالث: نتائج التراجع الأخلاقي وأثره في إضعاف المجتمع العباسي

على الرغم من الدور الكبير الذي أدته القيم الأخلاقية في بناء المجتمع العباسي وتحقيق ازدهاره الحضاري، فإن التجربة التاريخية للدولة العباسية تُظهر أن الالتزام بهذه القيم لم يكن ثابتاً في جميع المراحل. فمع اتساع الدولة وتعدد مراكز النفوذ واشتداد الصراعات السياسية، بدأت بعض مظاهر التراجع الأخلاقي بالظهور، الأمر الذي انعكس بصورة مباشرة على الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي. وقد أثبتت الأحداث التاريخية أن قوة المجتمعات لا تعتمد على الموارد المادية أو القوة العسكرية فحسب، بل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمدى التزامها بالقيم الأخلاقية التي تحفظ وحدة المجتمع وتحقق العدالة بين أفراده.وقد حذر القرآن الكريم من عواقب الظلم والفساد والانحراف عن المبادئ الأخلاقية، وعدّ ذلك من أسباب ضعف الأمم وزوالها، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ (الكهف: ٥٩). كما أكد الإسلام أن الظلم يؤدي إلى اضطراب المجتمع وانتشار الفتن وفقدان الثقة بين الحاكم والمحكوم، مما يهدد استقرار الدولة ووحدتها (الميداني، ١٩٩٩، ج٢، ص٢٨١) وقد شهد العصر العباسي في بعض مراحله انتشار مظاهر من الفساد الإداري والمالي نتيجة ضعف الرقابة وتزايد نفوذ بعض القادة والولاة. وقد أدى ذلك إلى استغلال السلطة لتحقيق المصالح الشخصية على حساب المصلحة العامة، الأمر الذي أضعف ثقة المواطنين بالمؤسسات الحكومية وأثر سلباً في كفاءة الإدارة. وتشير المصادر التاريخية إلى أن بعض الموظفين استغلوا مناصبهم في جمع الثروات أو ممارسة النفوذ بطرق تخالف مبادئ العدالة والأمانة التي دعا إليها الإسلام (ابن الأثير، ١٩٩٧، ج١٠، ص٢٤٣).

كما أدى الصراع على السلطة داخل البيت العباسي إلى إضعاف الاستقرار السياسي وإشاعة حالة من الانقسام داخل الدولة. فقد شهد التاريخ العباسي العديد من النزاعات بين الخلفاء وأبناء البيت الحاكم، الأمر الذي انعكس سلباً على وحدة الدولة وأتاح الفرصة لظهور حركات التمرد والاضطرابات الداخلية. وقد أسهمت هذه الصراعات في استنزاف موارد الدولة وإضعاف قدرتها على مواجهة التحديات الخارجية (الطبري، ١٩٦٧، ج٨، ص٦٢١). ومن أبرز مظاهر التراجع الأخلاقي التي أثرت في المجتمع العباسي ابتعاد بعض الحكام عن مبدأ العدالة في التعامل مع المعارضين السياسيين أو الشخصيات الدينية المؤثرة. وقد كان أئمة أهل البيت (عليهم السلام) من أبرز الشخصيات التي واجهت أشكالاً مختلفة من التضييق والمراقبة بسبب مكانتهم العلمية والاجتماعية الواسعة بين المسلمين. وقد أدى ذلك إلى ظهور حالة من التوتر بين السلطة وقطاعات واسعة من المجتمع كانت تنظر إلى أهل البيت (عليهم السلام) بوصفهم الامتداد الشرعي لنهج النبي محمد (صلى الله عليه وآله).

ومن الشواهد التاريخية البارزة في هذا المجال ما تعرض له الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) من اعتقال وسجن طويل خلال عهد الخليفة هارون الرشيد، حيث تذكر المصادر أنه نُقل بين عدد من السجون حتى استشهد في بغداد سنة ١٨٣هـ (المفيد، ١٩٩٣، ج٢، ص٢٣٣). كما واجه الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) ظروفاً سياسية معقدة خلال عهد المأمون العباسي، وانتهت حياته سنة ٢٠٣هـ في حادثة عدّتها مصادر عديدة مرتبطة بالصراع السياسي القائم آنذاك (المسعودي، ٢٠٠٥، ج٣، ص٤٠١).

وامتدت هذه السياسة إلى الإمام محمد الجواد (عليه السلام) الذي فُرضت عليه رقابة مشددة خلال إقامته في بغداد، كما تعرض عدد من أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بعده لممارسات مشابهة هدفت إلى الحد من تأثيرهم العلمي والاجتماعي بين المسلمين (القرشي، ٢٠٠٨، ج٢، ص١١٧). وقد مثلت هذه الإجراءات خروجاً عن مبادئ العدالة والحوار التي أكدت عليها التعاليم الإسلامية، وأسهمت في زيادة الاحتقان السياسي والاجتماعي داخل الدولة.

وفي المجال العلمي، أثرت الانقسامات السياسية والمذهبية أحياناً في حرية النشاط الفكري والعلمي، كما أسهمت الاضطرابات الأمنية في إضعاف بعض المؤسسات العلمية والثقافية التي كانت تمثل ركائز مهمة للحضارة العباسية. وقد أدى ذلك تدريجياً إلى تراجع الدور الحضاري الذي لعبته الدولة خلال فترات ازدهارها الأولى (ابن خلدون، ٢٠٠٤، ص٦٤١).

ومن خلال دراسة هذه الظواهر يتضح أن التراجع الأخلاقي لم يكن مجرد مشكلة فردية أو سلوكية، بل كان عاملاً مؤثراً في إضعاف مؤسسات الدولة وتقليل قدرتها على المحافظة على تماسك المجتمع واستقراره. فكلما ابتعدت الدولة عن مبادئ العدل والأمانة والتسامح واحترام الحقوق، ازدادت فرص ظهور الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تهدد وحدتها واستمرارها.

وعليه، يمكن القول إن التجربة العباسية تقدم نموذجاً تاريخياً واضحاً يبين العلاقة الوثيقة بين القيم الأخلاقية وقوة المجتمعات. فكما أسهم الالتزام بالأخلاق في تحقيق الاستقرار والازدهار خلال مراحل القوة، فإن التراجع عنها كان من العوامل التي ساعدت على ظهور الضعف والانقسام والتراجع الحضاري. ومن ثم فإن المحافظة على القيم الأخلاقية تبقى ضرورة أساسية لبناء المجتمعات واستمرار تقدمها في مختلف العصور.

الخاتمة والنتائج

توصلت الدراسة إلى أن القيم الأخلاقية شكلت ركيزة أساسية في بناء المجتمع الإسلامي خلال العصر العباسي، وأسهمت بصورة فاعلة في تحقيق الاستقرار السياسي والإداري وتعزيز التماسك الاجتماعي ودعم النهضة العلمية والثقافية. وقد استندت هذه القيم إلى القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال أهل البيت (عليهم السلام)، مما أكسبها مكانة مؤثرة في تنظيم شؤون المجتمع والدولة. كما أظهرت الدراسة أن قيم العدل والتكافل الاجتماعي والصدق والأمانة واحترام العلم كانت من أبرز العوامل التي ساعدت على ازدهار الحضارة العباسية واستمرارها. وفي المقابل، كشفت أن التراجع عن هذه القيم وظهور مظاهر الظلم والفساد والصراعات السياسية أسهم في إضعاف الدولة خلال بعض مراحلها التاريخية. كما بينت الدراسة الدور البارز لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) في ترسيخ المبادئ الأخلاقية والدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، وأن بعض السياسات التي مورست تجاههم ابتعدت عن مبدأ العدالة وأثرت في الاستقرار

المجتمعي. وتؤكد نتائج البحث وجود علاقة وثيقة بين الالتزام بالقيم الأخلاقية وبين قوة المجتمع واستقراره وازدهاره الحضاري، الأمر الذي يجعل من التجربة العباسية نموذجاً تاريخياً مهماً في بيان أثر الأخلاق في بناء المجتمعات وتقدمها.

المصادر والمراجع

- بن الأثير، عز الدين علي بن محمد (١٩٩٧). الكامل في التاريخ. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (٢٠٠٤). المقدمة. بيروت: دار الفكر.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد (٢٠٠٩). سنن ابن ماجه. بيروت: دار الرسالة العالمية.
- أمين، أحمد (١٩٦٩). ضحى الإسلام. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- البيهقي، أحمد بن الحسين (٢٠٠٣). السنن الكبرى. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الجهشياري، محمد بن عبدوس (٢٠٠٠). الوزراء والكتاب. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- الخضري، محمد (٢٠٠٤). محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية: الدولة العباسية. بيروت: دار القلم.
- زهران، حامد عبد السلام (٢٠٠٣). علم النفس الاجتماعي. القاهرة: عالم الكتب.
- زيدان، جرجي (٢٠١٤). تاريخ التمدن الإسلامي. القاهرة: مؤسسة هنداوي.
- الرضي، الشريف محمد بن الحسين (٢٠٠٤). نهج البلاغة. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- الطبري، محمد بن جرير (١٩٦٧). تاريخ الرسل والملوك. القاهرة: دار المعارف.
- عمارة، محمد (٢٠٠٧). مدخل إلى القيم الإسلامية. القاهرة: دار الشروق.
- لاالقرشي، باقر شريف (٢٠٠٧). حياة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام). النجف: دار الأضواء.
- القرشي، باقر شريف (٢٠٠٨). حياة الإمام محمد الجواد (عليه السلام). النجف: دار الأضواء.
- القرضاوي، يوسف (٢٠٠١). دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي. القاهرة: مكتبة وهبة.
- الكليني، محمد بن يعقوب (١٩٨٥). الكافي. طهران: دار الكتب الإسلامية.
- الماوردي، علي بن محمد (١٩٨٩). الأحكام السلطانية والولايات الدينية. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة (١٩٩٩). الأخلاق الإسلامية وأسسها. دمشق: دار القلم.
- المسعودي، علي بن الحسين (٢٠٠٥). مروج الذهب ومعادن الجوهر. بيروت: المكتبة العصرية.
- المفيد، محمد بن محمد (١٩٩٣). الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد. قم: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام).
- الندوي، أبو الحسن (١٩٨٨). ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. دمشق: دار القلم.
- النووي، يحيى بن شرف (١٩٩٤). شرح صحيح مسلم. بيروت: دار إحياء التراث العربي.